أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال الرحلات المغربية رحلة أبي سالم العياشي وابن الطيب الشرقي والهلالي نماذجا

د/ شرف موسى
المركز الجامعي نور البشير - البيض

الملخّص:

تتضمن هذه الدراسة معلومات عن أهمية الرحلة المغربية إلى الحجاز ودورها في توطيد الصلة الثقافية والعلمية، وعلى نحو خاص بين علماء المغرب الأقصى وعلماء الحجاز، ويتجلى ذلك من خلال اللقاءات العلمية والثقافية المختلفة التي كانت تجري بينهم في الحرمين الشريفين خلال موسم الحج غالبا، على غرار ما تناولته رحلة العياشي وابن الطيب الشرقي وفهرسة عبد العزيز الهلالي.

Résumé

Cette étude comprend des informations sur l'importance du voyage marocain au Hijaz et son rôle dans le renforcement du lien culturel et scientifique entre Savant marocain et Hijaz Savant notamment à travers les différentes rencontres scientifiques et culturelles organisées dans les deux mosquées saintes pendant la saison des pèlerinages. Comme voyage d'Ayachi et le voyage d'Ibn Tayeb al-Sharqi et le voyage d'Abdul Aziz al-Hilali.

العرض:

تعد الرحلة المغربية إلى الحجاز رافد من روافد التواصل بين أهل المغرب الأقصى وأهل الحجاز لاسيما في شقها الثقافي، وسواء كان ذلك في طابعها الرسمي الذي كان يحظى باهتمام المخزن المغربي أو في طابعها الشعبي الذي كان ينظّمه أصحاب الزوايا والطرق. وفي كلتا الحالتين كانت هذه الرحلات تزخر بالعلماء والأدباء الذين كانوا يشدون الرحال لأداء مناسك الحج وزيارة الحرمين الشريفين، مع السعي في طلب العلم ولقاء العلماء.

فإلى أي مدى ساهمت الرحلات المغربية الحجازية في توثيق أواصر الأخوة بين المغرب الأقصى والحجاز، وهل لعبت هذه الرحلات دورا في تطوير العلاقات الثقافية والعلمية بين البلدين، وما هي المكانة التي كان يحظى بها العلماء المغاربة عند نظرائهم في الحجاز؟

مميزات الرحلة المغربية الحجازية:

على الرغم من إدراج المؤرخين للرحلة المغربية ضمن الأنواع الأدبية الظريفة، فإنها فضلا عن ذلك فهي مفيدة في ميدان التاريخ، ويمكن وصفها بأنها من المصادر الدفينة التي تتضمن معلومات في شتى المجالات، لاسيما وأنّ معلوماتها بها الكثير من التفاصيل عن الحجاز وخاصة بلاد الحرمين الشرفيين –مكة والمدينة– وعليه فالرحلة المغربية تعتبر في عداد النفائس التي تعطي لنا فكرة واضحة عن تعلق المغاربة بقبلتهم في المشرق، مما قد يفسر المقولة السائدة في المغرب الأقصى "مكة في المشرق ورجالها في المغرب." [1]

عرف التراث المغربي كتابة الرحلة الحجازية بصورة واسعة منذ العصر المريني، وذلك لتسجيل مراحل السفر إلى الحجاز، والحديث عن معالم الحج وتأدية مناسكه.

كما يعد العصر العلوي بالمغرب الأقصى، مرحلة هامة في تاريخ الرحلة المغربية الحجازية، إذ نشطت حركة الرحلة، واستعادت معه نشاطها في الكتابة وتسجيل المراحل، حتى أنه أصبح من ميزة عصر المولى إسماعيل والذي يليه بقليل، كثرة الرحلات الحجازية المكتوبة التي أنتجها علماء المغرب الأقصى وأدباؤه.[2] هذه الرحلات التي فاقت الخمسين رحلة على ما ذهب إليه الأستاذ محمد الفاسي[3].

وهكذا جاءت الرحلات المغربية في العصر العلوي ولاسيما القرنيين السابع عشر والثامن عشر حافلة بالمعلومات المتعلقة بالطرق وأحوالها، الشيء الذي وفر لنا مادة غزيرة حولها. [4] ونظرا لتوفر مؤسسة ركب الحجاج التي أنشأها المغاربة من أجل تيسير الحج، شجع ذلك الكثيرين لقصد أداء مناسكه، أضف إلى ذلك أنّ اعتناء المخزن بركب الحج، أعطى له صورة رسمية في كنفه، ناهيك عن المكانة التي كان الركب يحظى بها لدى الزوايا وعامة الناس.[5]

جدير بالذكر أنّ أصحاب الرحلات من المغاربة حرصوا على تسجيل أخبار ركب الحج، وسرد وقائعه، مع عناية خاصة بذكر أخبار العلم والعلماء والأدباء، إذ كان لقاء الشيوخ بغرض الأخذ عنهم، والسماع منهم هو الهدف الثاني الذي كانوا يرومون إلى تحقيقه بعد أداء فريضة الحج.[6]

ولا يخفى على الباحث كذلك ما لهذه الرحلات الحجازية من أهمية بالغة في الوقوف

على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للكثير من المدن والأقطار التي يمر بها صاحب الرحلة. ناهيك عن المواد الفهرسية والأدبية التي تحفل بها الرحلات، إذ تمد الباحث بمادة علمية غنية، تدفعه للتأريخ للحياة العلمية والأدبية في العالم الإسلامي. كما أن المجالس الأدبية والعلمية التي كان يعقدها أصحاب الرحلة، كانت بمثابة الأسانيد والمرويات وأخبار العلم والعلماء تنتقل من قطر إلى قطر، ومن غرب العالم الإسلامي إلى شرقه والعكس أحيانا، فكانت تلك الأسانيد بمثابة شرايين في جسم الأمة ينتقل عبرها العلم والأدب.[7]

ومن هنا ذهب بعض المؤرخين إلى تصنيف هذه الرحلات في خانة الرحلات الفهرسية.[8] على غرار الأستاذ محمد الفاسي الذي رأى أن أصناف الرحلات الحجازية المغربية كثيرة، لأنه يدخل فيها الرحلات الدراسية وبعض الرحلات السياحية خارج المغرب ورحلات الزيارات وغير ذلك. [9]

وعلى ما يبدو فإن المغاربة تفوقوا عن غيرهم من الرحالة في فن كتابة الرحلة، إذ وضعوا فيه مؤلفات بديعة، البعض منها طبع، والبعض الآخر لا يزال مخطوطا، وهو المادة الأكثر تواجدا في مكتبات وخزائن المغرب الأقصى، ولا يخفى على الباحث كذلك أن بعضا من هذه الرحلات يعتبر ضائعا، ولا تعرف هذه الرحلات إلا من خلال ذكرها في كتب التاريخ والأدب والتراجم. [10]

لعل سبب تفوق المغاربة في كتابة الرحلة الحجازية عن غيرهم من الرحالة يرجع لعدة عوامل مختلفة أهمها: بعد الديار المغربية عن أرض المشرق والحجاز، مهد الحضارة العربية الإسلامية ومهبط الوحي، فكان جل من يقصد الحجاز من الأدباء والعلماء المغاربة لأداء فريضة، يدفعه شعور الانتماء إلى هذه الأمة إلى التعريف بتلك البلاد لما احتوته من آثار الصحابة والعلماء والمشاهد الشهيرة، مع وصف الطرق التي تؤدي إليها برا أو بحرا، فينتهز الرحالة فرصة هذا السفر الطويل ليقف بكل عواصم العلم التي يمر بها في طريقه.[11]

كما حرص أصحاب الرحلات على وصف المجتمعات التي يمرون بها، والعمائر التي تؤدي إليها مراحل الرحلة ومسالكها، ومن خلال رحلاتهم يتم التعرف على القرى والثغور والحواضر. ويتم التعرف أيضا على أهل هذه العمائر، وعاداتهم ومواقفهم، وتعاملهم مع ركب الحاج المار بأرضهم وغير ذلك. وقد ينتقد صاحب الرحلة بعضا من عادات هؤلاء الناس إذا كانت لا تتناسب وصورة المجتمع الإسلامي المتزن. [12]

هذا وارتكزت الرحلات الحجازية المغربية على ما يمثل التواصل العلمي والاجتماعي بين المغرب الأقصى وبقية المجتمعات التي يتم الاتصال بها، وبخاصة الأماكن التي تمتد بها إقامة الحجاج الراحلين. فيكون فيها متسع من الوقت للتعرف على نشاط أهلها الاجتماعي والعلمي، ويكون لأهل هذه المناطق أيضا مجال أكثر للتقرب من الركب ومعرفة من به من الشخصيات التي تستحق التعرف عليها والاستفادة منها، إما في وضعها العلمي المتميز، وإما في مكانتها الاجتماعية أو باعتبار ما تحمله من ملامح الولاية والصلاح، فيُتبرك بها ويُغتنم دعاؤها. غير أن التواصل العلمي يمثل الواجهة الأكثر إثارة في أعمال الرحلات الحجازية المغربية، فتشترك فيها جميعا دون استثناء، مع اعتبار نسبة التفاوت

بينها. [13]

لقد أقبل المغاربة بشغف على فن كتابة الرحلة، وصار الكتاب يتنافسون فيه، خصوصا في القرنين السابع والثامن الهجري حين ازدهرت الآداب والعلوم بتشجيع من المرينيين، الذين كان لهم اهتمام خاص بأخبار الماضي وأحوال البلاد، حتى أن الفضل في تسجيل أخبار رحلة ابن بطوطة مثلا يرجع لأبي عنان فارس المريني، حين استدعاه لحضرته وطلب منه أن يدون أخبار أسفاره الطويلة في أقطار الدنيا.[14]

لكن هذا لا يمنع القول أن القرن (12هـ/ 18م) والذي يليه امتازا بكثرة التأليف في الرحلات المغربية الحجازية، سواء تلك التي كانت في طابعها الرسمي في كنف المخزن مثل رحلة الوزير الإسحاقي[15] الذي رافق شخصيات مغربية رسمية مثل السيدة خناثة بنت بكار المغافرية[16] زوجة المولى إسماعيل وحفيدها المولى محمد بن عبد الله ورحلة أبي القاسم الزياني المعنونة «الترجمانة الكبرى» ورحلة ابن عثمان المكناسي المسماة «إحراز المعلى والرقيب» ورحلة ابن عبد السلام الناصري[17] وغيرها. أو تلك الرحلات التي قام بها علماء في رعاية أصحاب الزوايا والطرق، على غرار رحلة العياشي المسماة «ماء الموائد»، ورحلة الناصرية لأحمد بن ناصر الدرعي[18] ونسمة الآس للقادري، أو رحلة ابن الطيب الفاسي، وبلوغ المرام للزبادي، ورحلة الناصري (1239هـ/1824م) ورحلة الحيوني(1262هـ/1846م) ورحلة أبي العلاء إدريس صاحب مخطوط الابتسام (1267هـ/1851م) وغيرها من الرحلات مما لا يسع ذكرها في هذا المقام. [19] لذلك سنقتصر في هذا العرض على دراسة وتحليل رحلة أبي سالم العياشي ورحلة ابن الطيب الفاسي، كنموذجين من الرحلات الحجازية المغربية، بالإضافة إلى فهرسة عبد العزيز الهلالي المسماة «الفهرسة الكبرى» والتي قيد فيها أخبار لقائه بالعلماء في المشرق وإجازاتهم له أثناء رحلته إلى الحجاز، لنكتشف حقيقة الصورة التي تحملها هذه الرحلات، ولنغني هذا الوصف بالحديث عن مميزاتها: كتابةً، وأحداثاً، وأدباً.[20]

1 – ماء الموائد لأبي سالم العياشي (1090هـ/ 1679م)

ينتسب أبو سالم العياشي إلى آيت عياش قبيلة من البربر تتاخم بلادهم الصحراء من أحواز سجلماسة ويقال للواحد منهم بلغتهم فلان أعياش، ولد العياشي سنة (1037هـ/ 1627م)[21] وهو واحد من ألمع أعلام القرن(11هـ/17م)، القرن الذي عرف فيه الأدب في المغرب الأقصى في عهد المولى إسماعيل صحوة كبيرة. [22]

أخذ أبو سالم العلم عن أعلام عصره الذين أدركهم بالمغرب، فلم يشف غليله مما لديهم فارتحل إلى الحرمين الشريفين ثلاث مرات. كان ذلك عام(1059هـ/ 1649م) ثم في سنة(1064هـ /1653م) ثم في سنة(1072هـ/1661م)، وفي الحجة الثالثة ألف رحلته الشهيرة المعروفة بماء الموائد في مجلدين كبيرين[23] وهي أعظم رحلات أهل المغرب العلمية، طبعت بالمطبعة الحجرية بفاس سنة (1316هـ/ 1898م) في جزئين متوسطين.[24]

قال عنها الشيخ المسناوي (ت1136هـ/1723م) في كتابه جهد المقل القاصر: «جمة الفوائد عذبة الموارد غزيرة النفع جليلة القدر جامعة في المسائل العلمية المتنوعة ما يفوت الحصر، سلسة المساق والعبارة، مليحة التصريح والإشارة، كرحلة العلامة الضابط أبي

عبد الله ابن رشيد الفهري المسماة بملء العيبة.»[25]

أما الرحلة الصغرى لأبي سالم العياشي فهي في حقيقتها ليست برحلة حسب المفهوم المتداول للرحلة، لأنها لا تتحدث عن الوقائع والأحداث، ولا ترصد المسالك والمنازل والمراحل. وإنما هي عبارة عن رسالة وجهها أبي سالم إلى تلميذه القاضي أحمد بن سعيد المجيلدي (ت1079هـ/1668م) يرسم له فيها الطريق التي يسلكها للذهاب إلى الحج، إذ يعرفه ببعض ما يحتاج إليه من مهمات الطريق واختلاف أحوالها، ويذكره بما يستعين به لكل موضوع وما يتقي به شدائدها، وما يستشفى به من أدوائها، وغير ذلك. فهي رسالة توجيهية تنبه الراحل إلى المواد التي يجب أن يصحبها معه في رحلته، والأسواق والمرافق التي يلقاها في الطريق، وما تمتاز به. وما يمكن أن يأخذه من مواد أو سلع أو غيرها.[26]

ولأبي سالم العياشي تصانيف عديدة في الفقه والحديث وغيرها منها: ”سنة إظهار المنة على المبشرين بالجنة. وله كذلك في المدائح النبوية الكثير مثل: ”المضريات في إصلاح الوتريات“. وقد أجاز أبو سالم العياشي الكثير من العلماء الرحالة وأبنائهم ممن سيأتي ذكرهم لاحقا على غرار الشمس الدين محمد بن الطيب الشرقي الفاسي المتوفى سنة (1170هـ/1756م) والذي شملته إجازة أبي سالم لوالده وأولاده. بل أجاز أبو سالم العياشي لأهل عصره كافة على ما ذكره صاحب الفهرسة. وصارت إجازته للعلماء يتوارثها ولد عن والد، كتلك التي كتبت للسلطان أبي الربيع سليمان ابن محمد بن عبد الله بتاريخ (1212هـ /1796م) عن روايته لفهرس أبي سالم العياشي. وقد توفي أبي السالم العياشي يوم الجمعة 18 ذي القعدة عام(1090هـ/1679م) بالطاعون عن سن 53 سنة.[27]

وبالحديث عن ماء الموائد فهي رحلته الحجازية الكبرى. التي سجل فيها أبو سالم العياشي وقائع رحلته إلى الحجاز عام(1072هـ/1661م) مضيفا إليها ما كان قد شاهده في رحلتيه الحجازيتين السابقين سنتي(1059هـ/1649م-1064هـ/1653م) ووصف فيها ما حدث له من وقائع فيهما.[28]

وقد تحدث في مطلعها ما حصّل له من رحلته الحجازية الأولى، مما يتعلق بالمسالك، وملاحظة الطريق ومراحل السفر، مما يشترك فيه جميع الناس.

كما لم يحصّل للعياشي في الحجة الثانية منها إلا ما يتعلق بلقاء الشيوخ، وإجازاتهم، وارتباطه برواياتهم، مما كانت فهرسته «اقتفاء الأثر» كافية لاستيعاب ذلك. «فانصرف العزم عن كتابة ما سواه، إذ هو بدونه قليل جذواه. وصممت العزم على الرجوع، وجعلته أكبر همي في اليقظة والهجوع...»، لذلك كان لابد من رحلة ثالثة تكتمل بها الأحداث والوقائع، وتتضافر فيها العناصر المثيرة للتسجيل، بحيث يتجمع ما تقوم به مواد الرحلة في مختلف جوانبها، مما تحصل به الفائدة، وينتفع به المقيم والمسافر.[29]

وهكذا تهيأت كتابة رحلة شاملة جمعت بين وصف الطريق وتعداد المراحل. وتوسعت في التعريف بنشاط ركب الحاج في الحل والترحال، واستأثرت بذكر العلم وأهله، وتقديم مواده ومصنفاته، والتعريف برجاله. وجمعت الحديث المفصّل عن المناسك، ومعالمها المقدسة، ووصف الآثار الباقية منها، مما كان لمشهدها وجودٌ في السيرة والمغازي النبوية.[30]

فافتتح العياشي رحلته بالقول: «الحمد لله الذي قرن ممدوح السفر بممدوح الظفر، وحث عليه في طلب السعادة، فقال تعالى:»فلولا نفر»[31] فيا سعادة من نفر إلى الله مع ذلك النفر، ولم يمل السير في الليل إذا أدبر، والسير في الصبح إذا أسفر...[32]

أما بعد: الحمد لله الذي هو أول الذكر وآخر دعوى أهل الجنة، وأكد على افتتاح الأمر ذي البال به صحيح السنة، فيقول العبد الفقير، الذليل الحقير...أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي، جعل الله جميع تصرفه فيما يرضاه ابتغاء مرضاته... كثير الاشتياق والحنين، إلى تكحيل إنسان العينين بمشاهدة مشاهد الحرمين،..فيطير الروح بأجنحة الشوق إلى ذلك المكان ويود... فكانت تلك الرحلة وهي أعظم نحلة، تقبل الله فيها صالح أعمالنا... ولم يكن فيها كبير أمر يعتني بكتابة الرحلة لأجله، ويكاد عمله يستوي بجهله، إلا ما يشترك في معرفته عام الحاج وخاصهم من أوصاف المسالك، وتعداد المراحل وأسماء البلدان وما يضاهي ذلك، مما لا تطمح إليه العيون أولي الفضل، وترتاح لذكر همم أهل النبل، من لقاء المشايخ الفضلاء، ومحاضرة الأدباء النبلاء، ومباحثة الأذكياء، وزيارة الأنقياء، إلا أشياء إن انفردت بالذكر قلت، وإن أدرجت مع غيرها ضلت...» [33]

ولم تخلُ رحلة العياشي من استطراد في الحديث عن النص في واجهتيه العلمية والأدبية. فكان المجال متيسراً لإيراد النص العلمي في الأجوبة والفتاوى، ورسائل الشيوخ وكتاباتهم. وكان أكثر تيسراً لعرض الشعر والنثر، مما أنتجه أبو سالم، أو تبادله مع غيره، أو عرض له إعجاب به أدى إلى إيراده وتسجيله. فكانت رحلته بذلك ديوانا جامعا، ورحلة شاملة، اقتربت به من صنف الرحلات الكبيرة التي عرفها المغرب في عصور ازدهار فن كتابة الرحلة، على عهد بني مرين.[34]

ولعل الفهرسة الصغرى، لأبي سالم العياشي الموسومة بـ:»إتحاف الإخاء بأسانيد الأجلاء، أو بإجازة العلماء الأجلاء» والتي توجد في آخر الرحلة وهي موجودة في بعض نسخها الخطية لكونها لم تطبع، والتي ذكر فيها الاستدعاءات التي قدمها لمشايخه المشارقة، يطلب فيها الإجازات لنفسه ولولده حمزة، ولجماعة من أشياخه وأقرائه، خير مثال على ذلك.[35]

فمن بين المشايخ الذين أخذ عنهم أبي سالم العياشي بالحرمين الشريفين:» الشيخ العالم الحافظ الضرير محمد بن علاء البابلي المصري نزيل مكة المشرفة. قرأ عليه من أول صحيح البخاري إلى كتاب الأيمان والحديث المسلسل بالأولية وعشاريات ابن حجر العسقلاني[36] وأجاز له سائر من لقيه من أشياخه منهم الشيخ إبراهيم الدقان والشيخ سلام الدمنهوري وشهاب الدين أحمد الشلبي، والشيخ أحمد السبكي والشيخ حجازي الشعراوي والشيخ نور الدين الزيادي وغيرهم وقد شارك هؤلاء الشيخ البابلي في الكثير من العلوم.[37]

الثاني: الشيخ العالم تاج الدين المكي الأنصاري مفتي المالكية بمكة، وقرأ عليه العياشي البعض من صحيح البخاري وأجاز له سائر مروياته عن أشياخه.

الثالث: شيخ الحرم المكي المفتي محي الدين عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري، سمع له صحيح البخاري ومسلم والحديث المسلسل بالأولية.

الرابع: شيخ الحجاز بلا اختلاف إمام

الحرمين الشيخ أبو الحسن علي بن عبد القادر بن محمد بن يحيي... بن موسى الكاظم... بن الحسين بن علي رضي الله عنه مفتي الشافعية ومدرسها بمكة المشرفة، قرأ عليه العياشي بعض صحيح البخاري وبعض صحيح مسلم وسنن أبو داود. [38]

الخامس: الشيخ العالم أبو الحسن علي بن محمد الربيع الشيباني اليمني الزبيري، لقيه العياشي بمكة واردا لأداء فريضة الحج قادما من بلاد اليمن، وقرأ عليه صحيح البخاري وأجاز له كتاب الأذكار للنووي[39] والحصن الحصين للنسائي. قال العياشي:»وهو الذي دلني عليه وكتب لي إليه وحضني على الأخذ عنه (كذا).»[40]

السادس: الشيخ العالم أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد العزيز عبد الله اليمني،

السابع: من أهل الحجاز من المدينة المنورة أبو سالم إبراهيم... [41]

كما التقى العياشي الشيخ زين العابدين الطبري، وهو أحد شيوخه البارزين[42] فأردف عنه قائلا: «فوجدته بداره وسلمت عليه ورحب بي كثيرا وعزيته في أخيه شيخنا أبي الحسن،(أبي الحسن علي الطبري) وواعدني يوم السبت لتلقين الذكر ولباس الخرقة، واعتذر بكثرة الأشغال بولاية الفتوى، مضافة إلى إمامة المقام، مع شغل البال بأيام الموسم...ولقيني وأجاز لي الخرق الثلاث (كذا): القادرية، والسهرودية[43] والكبروية،[44] وقد كان أجازنيها أيضا قبل ذلك، وضاق الوقت عن كتب أسانيدها، ولنا بحمد الله أسانيد تتصل بها من طرق أخرى.» [45]

ولم يمنع وجود العياشي بالحرمين الشريفين من القيام بحلقات التدريس فيها لاسيما فيما تعلق بالفقه المالكي، وذلك لأسباب دفعته للقيام بذلك، إذ قال:» ولما كان شهر صفر ألجأني أصحابنا المالكية بالمدينة المنورة أن أقرأ لهم مختصر خليل في فقه مالك، فتعللت لهم بقلة الممارسة له وشغل البال وعدم ما يستعين به الإنسان من الشروح والحواشي، فلم يجدّ تعليلي لهم، بل زادهم إغراء، فابتدأنا قراءته في مؤخرة المسجد بالجانب الغربي منه، وكانت قراءتنا من بعد صلاة العصر إلى قرب المغرب، فقرأنا قراءة لا بأس بها زعموا أنهم لم يروا مثلها منذ أزمان، فلم نرى هناك من يحقق أدنى مسائله(كذا).» [46]

ويعد أبو سالم العياشي واحد من علماء المغرب القلائل الذين أقرأوا داخل المسجد النبوي- كما ذكر ذلك بنفسه- حديث الشمائل المحمدية، ”ولا يتصدر عادة للإقراء داخل المسجد النبوي إلا الجهابذة من العلماء. [47]

ولم تخلو رحلة العياشي من المناظرات العلمية التي عقدها في المسجد النبوي، من ذلك مناظرة علمية أجرها مع أحد المعتزلة، هذه المناظرة التي عنونها العياشي بـ: «إثبات الصفات» إذ قال أبو سالم:» بينما أنا ذات يوم بالحرم الشريف، ومعي رجل من الشرفاء من أهل المغرب، وبين أيدينا كتب، منها سفر من الفتوحات المكية وسفر من المحاضرات والمسامرات،[48] كلهما للشيخ محي الدين (كذا)، إذ جلس رجل من أصبهان[49] زعم أنه شريف، أضنه في سني فقال لصاحبي: أنت من طلبة العلم؟ لما يرى من حسن سمتي وندارة ملبسي، فأشار صاحبي إلي فأخذ يسألني عن الكتب التي بين يدي، فسررت إليه حين زعم أنه شريف، وزعم أنه مالكي المذهب. فسألته عما يقرأ من كتب المذهب، فتبين لي كذبه، ثم أخذ يسألني ولم أعرف سوء معتقده، فكان مما قال لي أن قال: ما معنى الله؟ ولم أفهم سؤاله، فقلت علم على الذات الواجب الوجود

إلى آخر ما يقال في ذلك، فقال ما معنى القلم؟ فأجبته، وكانت في كلامه لكنة أعجمية، وكان يريد غير ما أجيبه به، ثم تأملت كلامه فإذا هو يريد البحث في مسألة الاسم هل هو عين المسمى أو غيره؟ فتكلمت معه في ذلك بما لأئمتنا من التفرقة بين معنى الاسم والمسمى والتسمية، وأن الخلاف في ذلك يرجع إلى وفاق. ثم انتقل إلى الكلام في مسألة إثبات الصفات، فشممت منه رائحة إنكارها، بل صرح بذلك، إلى أن قال: هم يزعمون كذا وأن المعنى الوارد في إثباتها كذا وأن إثباتها يؤدي إلى كذا وكذا... وكلما أقمت عليه حجة في إنكار إثباتها، وردّ ما استدلوا به على نفيها يقول: لو كنت تفهم العجمية لأجبتك، وكان له لسانه بالعربية فيه بعض الثقل، وكان على كل حال له مشاركة حسنة، قوة بحث في المعقولات على مذهب أهل الاعتزال، إلا أنني بحمد الله لم يورد علي إشكالا في معتقد السنة إلا نقضته وأزلته، فلا يكون له جواب إلا ما تقدم من التعلل بعدم معرفتي بلسانه، فكان آخر ما قلته له نحن معاشر أهل السنة والجماعة نجعل معتمدنا في العقائد الدينية الأدلة النقلية من الكتاب والسنة الصحيحة الموافقة للأدلة العقلية...»[50]

إن تحليل هذه المناظرة الهامة يوقفنا على صورة من صور المناظرات التي كانت تجري في أحد الحرمين الشريفين في موسم الحج، وبذلك يتأكد أن موسم الحج كان مناسبة للقاء العلماء والحوار فيما بينهم على اختلاف مذاهبهم وأمصارهم.

وإذا كان العياشي يخالف هذا المعتزلي في الرأي إلا أنه لم يمنعه من الاعتراف بعلمه، وتلك إشارة لطيفة تدل على ما كان يتحلى به العياشي من خصال حميدة، وذلك من آداب المناظرة، فالخلاف في الرأي لا يوجب الطعن في المخالف ولا التنقيص من علمه دون موجب. [51]

وعلى الرغم من المكانة المحمودة التي كان يتمتع بها علماء المغرب لدى نظرائهم بالحرمين الشريفين، إلا أن هذا لم يمنع وجود المعاملة السيئة التي كانوا يلقونها في ركب الحجاج المغاربة من طرف أمراء الحجاز وحكامها، كأن يفرضوا عليهم إتاوة الحج، أو يحبسوهم في حال عدم الدفع أو العجز عن ذلك. فقد ذكر العياشي جملة من الأسباب كانت تدفعهم للقيام بذلك: ”وعند الخروج من مصر لا يأخذون إلا من أهل المغرب الأقصى وأهل السودان متعللين بما ذكرناه، أو لأنهم ليسوا من رعية السلطان، فلا يخرجون من بلد السلطان إلى سواها إلا بجعل[52] وخراج ” قاتلهم الله أنى يؤفكون“[53] وقد ذكر لنا بعض المؤرخين أن مثل هذا كان يقع قبل هذا الزمان من أمراء مكة للحجاج المغاربة، فيأخذون منهم قدرا معلوما من المال على كل غني وفقير ومن لم يكن له مال يدفع منه ذلك المقدار، حبس حتى يفوته الحج إلى أن قيض الله لذلك بعض الصالحين من ملوك فبعث إلى أمير مكة في إسقاط ذلك عن الحاج وجعل له قدرا عظيما من الأموال يأتيه في كل سنة من مصر، فانقطعت تلك المحنة بسبب ذلك...وعلة أمراء مكة في أخذ ذلك: ”نحن حماة الحرم والدابين عنه وعن الوافدين عليه، ولولا ذلك لاختطفهم ذئاب الأعراب، ولا يقوم ذلك إلا بعساكر وحماة، ولا قيام لهم إلا بأموال، وبلاد الحجاز ضعيفة لا يفي ما يتحصل من خراجها بذلك فلا بد لنا من أموال نستعين بها على ذلك، إما من سلاطين الأقطار أو من رعاياهم إذا وصلت إلينا“. [54]

2 – رحلة أبي عبد الله محمد بن الطيب

الشرقي الفاسي (1170هـ/ 1756م):

وهي الرحلة التي سجل فيها ابن الطيب الشرقي أحداث ووقائع سفره من المغرب إلى الحجاز، ذهابا وإيابا عام (1139هـ/ 1726م) وهي رحلة ذات حجم متوسط تجمع بين الدقة في الوصف، والعرض المركز للمشاهد والوقائع والأحداث، يهتم فيها صاحبها بتسجيل المراحل التي يقطعها الحاج، والمسالك التي يمر منها منذ خروجه من فاس، مروراً بتازا[55] إلى مصر فالحجاز. وفي كل هذه المراحل يتحدث عن الواقع الاجتماعي والعلمي ومن لقيه من الرجال أو تذاكر معه. [56]

وحسب الأستاذ محمد الفاسي فإن هذه الرحلة تعد الثانية لابن الطيب الشرقي نقل فيها أخبار ما عاشه في مكة والمدينة سنة (1139هـ/ 1726م) وهذه الرحلة لها نسخة مخطوطة فريدة في جامعة لا يبسك بألمانيا مكتوبة بخط مشرقي.[57] والرحلة في مجموعها تشتمل على سبع وستين ومائتي صفحة.[58] كما أنها اليوم موجودة في نسخ مصورة يسهل الاطلاع عليها.

تضمنت رحلة ابن الطيب الشرقي كذلك وقفات متأنية في الحجاز عند تأدية المناسك، وفي مصر عند حديثه عن بعض من لقيه من العلماء والشيوخ، ولم تخل الرحلة من مادة أدبية، سواء ما تمثل في طريقة الكتابة الطبيعية عند أبي الطيب الشرقي، أو ما ضمه من أشعار له ولغيره. [59]

ولد أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن موسى الصميلي الفاسي المعروف بالشرقي أو الشركي بمدينة فاس سنة(1110هـ/1698)، ويعرف عند علماء المغرب بابن الطيب الشرقي، نسبة إلى قبيلة عربية استوطنت مدينة فاس ويعرفون إلى اليوم باسم الصميلي، ولشهرته بالمشرق لقب بالشيخ شمس الدين. درس الأخير بالقرويين وأخذ عن جهابذة العلماء بها، من ذلك أمحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، وعن محمد بن أحمد المسناوي وغيرهم. [60]

روى عنه عبد الحي الكتاني صاحب فهرس الفهارس أنه صاحب بالمشرق ما يربو عن مائة وثمنين شيخا عالما. ولما رجع إلى فاس انكب على التدريس وتأليف واشتهر حتى ذاع صيته في المغرب، فأقبل عليه الطلبة من كل حدب وصوب، فصار بلا منازع إمام عصره. غير أنه فكر في مغادرة المغرب مرة ثانية قاصدا البقاع المقدسة ومصر والشام والعراق، أين مكث في مكة سنتين، وختم بالمسجد الحرام كتب الصحاح الستة وغيرها من كتب أصول الحديث، ولا يعرف المؤرخون هل كان ابن الطيب الشرقي ينوي البقاء نهائيا في البلاد المشرقية عند مغادرته أرض الوطن أم أن فكرة البقاء راودته وهو بالمشرق؟ لكن الواقع أنه بعد أن طاف بمختلف مراكز العلم، استقر به المطاف بالمدينة المنورة واتخذها وطنا، ومنها انتشر صيته وصار مقصدا لمختلف طلاب العلم خاصة في مواسم الحج، فأخذ عنه الشيخ المرتضى الزبيدي شارح كتاب القاموس،[61] الذي قال عنه:» ومن أجمع ما كتب عليه مما سمعت ورأيت شرح شيخنا الإمام اللغوي أبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المتولد بفاس سنة(1110هـ/1698م) والمتوفى بالمدينة المنورة سنة (1170هـ/1756م) وهو عمدتي في هذا الفن...وشرحه عندي في مجلدين ضخمين.» [62]

ولابن الطيب الفاسي مجموعة كبيرة من المؤلفات فاق عددها الخمسين، وأهمها القاموس المحيط المسمى» بإضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس» ويعرف بحاشية

ابن الطيب على القاموس ومنها «المسفر عن خبايا المزهر» في اللغة شرح للسيوطي.[63]

وملخص رحلة ابن الطيب الفاسي حسب ما جاء على لسانه:'' وكنا جمعنا في طريقنا نبذة تحتوي على ما سلكناه من مراحل وتعداد ما نزلناه من المنازل، وتشتمل على ذكر من لاقيناه وتكلمنا معه في نازلة من النوازل، وفي ضمن ذلك أبيات كان يقتضيها الحال وقصائد شرفناها بذكر تلك المحال وفوائد مهمة يعتني بها ذو الهمة فاستولت على ذلك كله يد الضياع وسرقها سارق مع ما كان لدينا من كتب ومتاع، فلم يسعنا إلا الصبر الجميل...لكن حصل لنا أسف شديد على تلك الرحلة التي ليس لها في صنعها فريد مع اشتمالها على تلك القصائد الفائقة، وحيث ألقينا عصا التيسار (كذا)، واستقرت بنا من الحجاز في مصر الدار، طلب منا بعض من يجب علينا إسعافه (كذا)''. [64]

ولا بأس هنا أن ننقل للقارئ ما ورد في رحلة ابن الطيب الفاسي موجزا – في فضل الحج: جاء هذا الفصل من الرحلة معنونا بالمقدمة الأولى إذ أورد صاحب الرحلة ما نصه: «والوثائق الصحيحة في فضل الحج والعمرة وما أعده الله للحجاج والعمار مالا يناله غيرهما وإن أفنى في أنواع الطاعات عمره، قد ذكر الله تعالى في كتابه الحكيم، بيته الشريف المعظم وقلد بيته من أبلغ المدح وأسبغ الحمد.» وأورد أبي الطيب الفاسي في فضل الحج أحاديث كثيرة. [65]

أما المقدمة الثانية من الرحلة فجاء فيها عن فضل زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، وشفاعته لمن صلى عليه وزار قبره.

وتأتي المقدمة الثالثة من الرحلة على ذكر السفر وفوائده الجمة، خاصة إذا كان السفر في طلب العلم أو الحج إلى البيت الحرام.

وتضم المقدمة الرابعة من الرحلة ما يجب على المسافر أن يتخذه في سفره من زاد وملبس وتواضع ومن استشارة أهل الحزم والرأي قبل السفر. [66]

ثم يأتي صاحب الرحلة على ذكر خروجه من فاس:'' ذكر خروجنا من فاس ومفارقتنا لتلك الديار: خرجنا من فاس الغراء التي لم ينظر لها نظير سوى الحرمين الشريفين، فيما أظلت الخضراء وأقلت الغبراء، الأرض التي لم تزل رياضها بمآثر الكمالات أريضة ومحاسنها الباهرة طويلة عريضة(كذا)، أرض جمعت ما تفوق الدنيا المحاسن وحوت ما لا يوجد في غيرها من الفواكه المنوعة وأنهار الماء الذي ليس بآسن.'' [67]

وبعد أن يسترسل في الحديث عن بلاد المغرب ومزاياها، وكذا ما لاقاه في السفر من المشقة والأخطار مع الركب المغربي.[68] راح صاحب الرحلة يطيل الحديث عن المسالك والطرقات التي مر بها الركب إلى الحجاز والمدن والبلدان التي توقف فيها والأسواق التي دخلها، إلى غير ذلك من المدن والأمصار التي حل بها، إلى أن وطأت قدماه أرض الحجاز التي لم يتأخر في وصف مدنها وقراها، ولم يتوقف في الحديث عن أهلها وعلمائها فقال مثلا: ''وبتنا ببدر وأصبحنا نسير في أزقتها وبين بساتينها المشرقة ونخيلها الشديدة الخضرة والنعومة المشرقة المراجين... وقد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول، معلنين بذلك، وأسعارها في الغالب أرخص من غيرها مع صغرها، وانقطاعها عن البلاد، وأهلها محفوظون مطمئنون مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم (كذا)، وقد زرنا محل الشهداء

وعليهم جدار قصير محيط بقبورهم، وبالقرب منهم قبور السادات الأشراف الردينية.(كذا) من أهل اليمن، نزل أسلافهم بهذا البلد ولهم أتباع في طريق القوم(كذا).'' [69]

واستمر ابن الطيب في الكلام على هذا المنوال إلى أن دخل مكة وقضى مناسك الحج، وفي حديثه عن مكة، خصص ابن الطيب لها فصلا كاملا إذ كان دخوله مكة يوم 20 أوت 1757م. [70]

ولم يغفل ابن الطيب الحديث عما وقع للركب المغربي من محن وأزمات، قاصدا بذلك تنبيه الحاج أو الراحل للمخاطر التي قد تعترضه في مكة وقتها، من ذلك ما وقع بمنى من سرقة تعرض له الركب المغربي، إذ قال: '' فقد سرقت في هذه الليلة جماعات كثيرة من ركبنا وذهبت بغال وأموال عريضة وسرقت لنا خيمتنا بما فيها من حوايج وأمتعة وطعام وغير ذلك، حتى لم يبق لنا ما نسد به الرمق.'' [71]

وفي حديثه هذا لا يخرج عما نقله العياشي حين قال: ''وتركنا الخباء والإبل... ببيت فيه بعض أصحابنا، ولقوا من أذى السرّاق بالليل شدة، فإنهم يهجمون على الناس هجوما ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وإرخاء العنان لهم في ذلك، وقد قيل أنهم يأخذون منهم جعلا على ذلك في أيام المواسم، فإذا أتي إليهم بسارق أدخلوه الحبس على أعين الناس، فإذا جن الليل أخرجوه، وأما في غير الموسم ففي تلك البلاد الحكم التام الذي لا يوجد في بلد من البلاد.''[72] ويضيف ابن الطيب قائلا:» وبتنا تلك الليلة بمنى ولم يبت بها إلا المغاربة وقليل من غيرهم، وكثير من الناس ذهبوا إلى عرفات، وذلك دأبهم منذ أزمان، وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين، كالعبدري الحاحائي(689هـ/1260م) وابن الرشيد السبتي(721هـ/1321م) ومن بعدهما، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الركاب. وقد منّ الله على المغاربة بإحياء هذه السنة في كثير من السنين، ولم يفتنا في حجة من الحجات، ولله الحمد.»[73]

كما نقل ابن الطيب أخبارا عن الفتن التي كانت تقع من حين لآخر بين الركب المصري والركب الشامي وما صاحبه ما أحداث إذ قال في هذا الصدد:» كما وقعت فتنة بين أمير الركب الشامي وأمير الركب المصري حتى عزما على القتال وتقابلا للاقتتال حتى حال بينهما أمير مكة، وفصل بين الأميرين، ودخل بينهما جزاه الله، وسرنا في الأخريات ولم نر بفضل الله زحاما ولا ضيقا حتى خرجنا من بين المارين.[74]

ولأن رحلة طالب العلم لا تخلو من التقرب من العلماء والأخذ عنهم، فإن ابن الطيب الفاسي كان له حظ وافر في ملاقاة بعض من العلماء في مكة والتدارس معهم. من ذلك الشيخ أبو العباس أحمد بن حجر مدرس بالحرم الشريف، الذي قال عنه ابن الطيب:» رجل لا بأس به، له معرفة بالحديث كأسلافه رحمهم الله.» ومثله الشيخ أبو محمد عبد القادر بن يحي الحنفي اليمني أحد خطباء الحرم وأئمته، وقد أثنى عليه قائلا:» وكان يبدي خطبا مجدة جامعة لا بأس بها، مع إتقان الحفظ ومراعاة المعنى واللفظ.» [75]

كما التقى ابن الطيب الشيخ العالم محمد بن محمد قاضي زادة الأنصاري الشهير بالقاضي عيد، وعن ملاقاته قال:'' ولقيت من علمائها الشيخ محمد بن محمد قاضي زادة الأنصاري الشهير بالقاضي عيد، ورد علينا أولا ودعنا إلى داره،

فأسعفناه رغبة في إدخال السرور عليه واغتناما لدعوته لأنه رجل طعن في السن جدا(كذا) يناهز المائة مع تعلقه بأسباب العلم وتمسكه بأذيال الحلم، وخضنا معه مسائل علمية متنوعة إلى عربية وحديث وآداب، وغير ذلك، وقد شاهدنا من أحواله سمة الصلاح، لما رأينا من إكثاره للذكر وإعلانه بالحمد والشكر، وذكر لنا الناس أنه من ذرية أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لقب عيد لأنه ولد يوم عيد الفطر، وأطلعنا على مؤلفات له بديعة في فقه الحنفية.''[76] ولأن القاضي عيد كان يعتقد الصلاح في ابن الطيب، طلب منه أن يكتب له على بعض الكتب بقصد التبرك وكذلك فعل مع ولديه. قال صاحب الرحلة:'' وطلب منا أن نكتب له على بعضها بقصد التبرك لحسن نيته، وإخلاص طويته، فساعفناه لذلك وإن لم نكن أهلا لتلك المسالك جبرا لخاطره واستدامة لمودته ودعائه وأحضر لنا ولديه الشيخ حنيف الدين والشيخ زين العابدين وكلاهما له معرفة وحسن خلق والأول هو النائب عن والده في التدريس بالحرم الشريف (كذا) '' [77]

ولم يخف ابن الطيب اهتمام الحجاج المشارقة وغيرهم بشخصه لماّ علموا مكانته من العلم والفتوى، مع أنه كان يبدي تواضعه وعدم معرفته بمثل هذه المسائل. قال ابن الطيب: ''وألفيت معه – العلامة الفيلالي، هذا الأخير كان مرافقا لابن الطيب في رحلته- جماعة من طلبة الهند، فأخذ يثني لهم علينا، ويبالغ في الثناء بالسعة في العلوم... وإن كنا لسنا أهلا لما قاله، جزاه الله خيرا، أقرئهم طرفا من تفسير البيضاوي[78] ...فتعللت له بأني لا كتب لي ولا حواشي أستعين بها على ذلك... فأبى أن يقبل... فساعفناه بذلك في تلك الأيام التي انقضت كالأحلام (كذا). [79]

والمهم في هذه الرحلة أن ابن الطيب كان له نشاط علمي تميز به في أثناء مقامه، ويتعلق الأمر بطلب رأيه في النوازل التي عرفتها المنطقة، [80] من ذلك قوله:» وفي أثناء هذه الأيام ورد علينا سؤال قال فيه السائل: ما يقول مولانا العالم الهمام شيخ مشايخ الإسلام، وحامل شرعة النبي عليه الصلاة والسلام، أستاذ علماء المغرب وشيخ أئمة المشرق ومحلى بفرائد فوائده في جميع الأفاق كل مفرق، صاحب العلم الذي طبق... والمفاصل والفتاوى التي حكمها بين الحق والباطل فاصل، والتآليف التي وصفها بالإجادة من باب التحصيل الحاصل مولانا شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الطيب المغربي الرحالة الواصل (كذا)، أبقى الله بركته وأسعد سكونه وحركته: في مسألة الشرب من الميزاب، فإنه من الذهب، فما تقتضيه قواعدكم التي مال إليها رأيكم السديد وذهب؟ فقد أشكل علينا ذلك، وما ندري ما نسلكه فيه من المسالك، فحققوا لنا فيه القول وبينوه وأوضحوه وعينوه.

من كان يسأل ربه أمنية فالله أسأل أن يديم لك البقاء

والسلام عايد على سيادة مولانا ورحمة الله وبركاته. [81]

يقول ابن الطيب الفاسي:'' أجبته جوابا يناسب سؤاله في بلاغة الأسجاع (كذا) ويشفي ببلاغته ما تحدثه أدواء الجهالة من الأوجاع، ولكن سرق الجواب في الرحلة وبقى السؤال في بطاقة محفوظة في الجيب، لأنه كان عندنا من أنفس نحله. والحاصل ما تضمنه الجواب أن الميزاب تجاذبه أمران، الجواز بالنسبة لتعظيم البيت وتبجيله إذ ذلك هو المراد منه، ولم يقصد الانتفاع به في شيء من الأشياء، والحرمة بالنسبة

لكونه ذهبا واستعماله حرام على ذكور هذه الأمة، كما هو معروف في أمهات الفروع، ثم ملنا إلى جواز مناولة الماء منه لما رأينا من استسهال ذلك وخفته. أما أولا فإنه ليس آنية معدة للاستعمال وليس له وجه ينتفع الإنسان به منه، وإنما هو بمثابة الخشبة التي تجعل على السقوف يخدر منها ماء المطر لئلا يضر بالسقوف. وأما ثانيا فإنه قصد منه تعظيم البيت وتبجيله للانتفاع به والارتفاق في شيء من الأشياء(كذا). وأما ثالثا فإن الماء لا يتناوله من الفم وإنما يصب في أيدي الناس وفي ثيابهم ويجمعونه في أيديهم ويشربونه بعد ذلك.'' [82]

هذا وقد وردت على صاحب الرحلة جملة من الأسئلة أخرى أجاب عليها بما رآه مناسبا.

3 – رحلة أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي (1175هـ/1761م)

نسبة إلى صاحبها أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الذي ينتسب إلى أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الهلالي السجلماسي المولود سنة(1113هـ/ 1701م) بسجلماسة والمتوفى بها في 12 ربيع الأول عام 1175هـ.[83]

درس الهلالي بمدغرة بسجلماسة ثم بفاس وكان على صلة وثيقة بالملك العالم محمد بن عبد الله.[84] قال عنه القادري صاحب نشر المثاني:» ليس له نظيره في زماننا علما وديانة ومروءة ومحبة للفقراء والصالحين وأهل البيت النبوي وحرصا على الخير وإخماد الفتن والظلم وبعدا عن الرياسة وعدم الاكتراث بالجاه وخصال الصلاح مجموعة فيه.» وجاء في الروضة المقصودة أن السلطان محمد بن عبد الله العلوي حين بويع، سأل الشيخ أبا حفص الفاسي عن أعلم الناس، فقال أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي... أما الحضيكي في طبقاته فقال: كان أعلم أهل زمانه وأتقاهم وأزهدهم في الدنيا وأرغبهم في الآخرة وأحبهم لله ولأهل حزبه وأورعهم وأحرصهم على إقامة الدين وأشدهم تمسكا بالسنة المطهرة وإتباعها. [85]

أما عن رحلة الهلالي إلى الحجاز فقد ذكر تلميذه محمد بن الطيب القادري في نشر المثاني، أن معلمه الهلالي رحل إلى الحجاز مرتين بقصد الحج. فحج مرتين، ولقي المشايخ في الحرمين ومصر. وألفَّ في ذلك رحلة'' لخصها القادري في نشر المثاني.[86]

وقد أورد ذكرها أيضا صاحب الروضة المقصودة عند ترجمته للهلالي وذكر مؤلفاته، فقال: «ومنها الرحلة الحجازية».[87]

وأضاف:» وأعمل الرحلة إلى الحجاز مرتين فحج واعتمر ولقي أهل الحرمين ومصر كل شيخ معتبر، وجمع رحلته في مجلد مشتمل على فوائد لا تجحد.»[88]

ولم يضف صاحب الروضة جديدا يعين طبيعة هذه الرحلة وحجمها وموادها.[89] وهذا ما جعل الأستاذ محمد الفاسي يشكك في وجود الرحلة وإن كانت ذكرت في ترجمة الهلالي في الروضة المقصودة.[90] وهذا الأستاذ مرابط يقول عن رحلة الهلالي: «لا أعرف عن هذه الرحلة – في حدود علمي – غير ما ذكرته. وإذا كان نصها يعتبر في حكم المفقود الآن، فإن هناك من تشكك في نسبة وجود رحلة حجازية إلى الشيخ أحمد ابن عبد العزيز الهلالي.»[91]

وعلى ما يبدو فإن رحلة الهلالي مفقودة، لأن الحديث عنها في كتب الرحلات يكاد يكون منعدما، عدا صفحات تعد على أصابع اليد ذكرها بعض المؤرخين المغاربة.

لكن بالمقابل تكشف الفهارس وإجازات الهلالي التي كتبها لتلامذته والراغبين في علمه، والتي شحنها بأسانيده في المصنفات والأحاديث المرفوعة إلى شيوخه المشارقة. أومن خلال التعريف بهم وذكر رواياتهم، وعرض نصوص إجازاتهم للشيخ الهلالي، وجها آخر من أوجه هذه الرحلة. [92]على غرار ما تضمنته الفهرسة الكبرى للهلالي المكونة من ثلاثون صفحة مخطوطة، من ذكر لعدد من العلماء المشارقة ممن أجازوا الهلالي في رحلته إلى الحجاز وهي الفهرسة التي قام السيد رشيد المصلوت الروداني بنشرها بالاعتماد على نسخة كتبت عام (1262هـ/1845م) لأحد علماء تارودانت[93] السيد أحمد بن الحسن اليوسفي التدسي الروداني، نقلا عن شيخه الفقيه عبد المالك بن عبد الكريم الهوزالي الروداني(كان حيا عام1232هـ).[94] والنسخة التي أخرجها السيد المصلوت موجود أصلها في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 850ج، كما أنها اليوم مصورة ويسهل على المهتمين بالرحلات المغربية الرجوع إليها. [95]

هذه الفهرسة ابتدأها صاحبها بذكر فضل العلم وشرفه والعناية به إذ قال: ''الحمد الله وحده وصلى الله على سيدنا محمد ... الحمد لله على ما أنعم وعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، أما بعد: فإنه لا يخفى أن العلم أشرف ما عني به ألو الألباب وأطرف ما تنافس ذووا الهمم العالية في العكوف عليه والإنكباب... وقد سألني من لا يسعني رده أن ألخص له تلك الأسانيد ما يعظم وقعه ويخف سرده، فاقتطفت له ما تيسر اقتطافه على استعجال.'' فذكر الهلالي عددا من شيوخه ممن أجازه بالمغرب الأقصى ومصر والحجاز: مثل أبو البركات سيدي أحمد بن إبراهيم بن أبي القاسم الغجناوي السجلماسي. والشيخ محمد بن عبد السلام البناني الفاسي، والشيخ أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي، وكذا مصطفى الصديقي بن كمال الدين البكري الشامي، ومحمد بن الطيب الشرقي نزيل مكة ومحمد بن حسن العجمي المكي، وعبد الوهاب بن أحمد الطنشي الأزهري المكي الشافعي، ومحمد السجيني المصري، ومحمد الحفناوي المصري الشافعي، وشهاب الدين أحمد العماوي المالكي وغيرهم. [96]

وأضاف الهلالي قائلا: وأجازني الشيخ الصديقي أسعده الله عن البدير عن الكوران عن الفشاشي بسنده المتقدم في صحيح البخاري... وأجازني الشيخ السجيني بسنده إلى الحافظ بن حجر العسقلاني....وأجازني الشيخ القدوة الصرغيني حمى الله سيادته وشيخنا الحفناوي رعاه الله عن البدير عن الكوراني عن الصفي الفشاشي بسنده إلى ابن حجر.''[97]

وختم الهلالي فهرسته هذه بالقول: ''هذا ما تسنى الآن تقيده مع شغل بال مانع من ترقية ما يجب من الاحتفال والابتهال والحمد لله تعالى على كل حال ونسأله حسن الخاتمة واللطف في المقام.»[98]

على العموم فرحلة العياشي ورحلة ابن الطيب الشرقي ورحلة الهلالي لا تختلف عن باقي الرحلات المغربية إلى الحجاز، لاسيما وأن المتأخرين من أصحاب الرحلات نقلوا عن سابقيهم، وبهذا ظلت الرحلات حلقة وصل بين المشرق والمغرب الأقصى ورافد من روافد انتقال العلم والعلماء بين الحجاز والمغرب الأقصى. كما تشير مصادر التاريخ المكي بما كان للعلماء القادمين إلى مكة المكرمة والمدينة والمجاورين بهما من إسهامات جليلة، ومن جهود ومشاركات كبيرة في النهضة العلمية،

وفي مقدمة ذلك: التدريس في أروقة الحرمين الشريفين وساحاتهما وفي أماكن إقامتهم، وتظهر آثار ذلك النشاط العلمي بما استفاده علماء مكة والمدينة من اقتباس أو كتابة وتأليف، وأكدوا تلك الفائدة بالثناء العطر والذكر الحسن لأولئك العلماء المجاورين بمكة والمدينة، أو القادمين لأداء فريضة الحج، وما حملوه عنهم من إجازات ومؤلفات علمية، ومذكرات شخصية بينت ما حصل من فوائد علمية في تلك اللقاءات العلمية في رحاب الحرمين الشريفين، ووردت أسماء هؤلاء العلماء الأجلاء الوافدين إلى مكة للحج في كتب التراجم،[99] على غرار محمد الدقاق السلوي الذي حلاه مترجموه بالتضلع في العلم والكفاءة في التدريس، ولقد كان هذا العالم يعطي دروسا في الحديث النبوي بالحرم المكي، واحتل مكانة مميزة هناك، وكان السلطان العثماني محمود الأول يصرف له كل سنة جائزة.[100] وكذا على نحو ما ذكره أبي العلاء إدريس في مخطوط الابتسام عن عدد من العلماء المغاربة ممن لقيهم في الحرمين الشريفين وكان يحضر حلقاتهم من أمثال: الشيخ العلامة محمد الصالح، الفقيه الشافعي، الذي كان إماما بيت الله الحرام، وكان يقرأ الناس صحيح البخاري بين المغرب والعشاء، والشيخ عبد الله السراج، الأديب المشارك الفصيح، الذي كان يعكف على تعليم التفسير في الحرم المكي والشيخ العالم الحافظ أبي العباس سيد أحمد بن إدريس الذي انتقل إلى مكة واستوطنها وتحسن حاله فيها، وكان يجلس في المسجد الحرام بعد صلاة العصر، فيجتمع الناس عليه ليسمعوا منه أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يفتي الناس برأي ولا يقلد أحد من الأئمة الأربعة في الحرم المكي، وإذا سؤل عن حكم، قال: «قال رسول الله ﷺ»، كما كان الشيخ أحمد بن إدريس يجتمع بجماعة من أهل فاس في بيته بأعلى مكة، وكان مسموع الكلمة عند ذوي السلطان وقد اشتهرت أخباره في اليمن والسودان، انتقل في آخر عمره إلى اليمن حيث وافته المنية سنة (1250هـ /1834م)[101]

وهكذا كان هؤلاء العلماء المغاربة منارات علم وهدى في أقطارهم وخارجها، ينشرون العلم بين الناس ويقومون بالدعوة بين أهلهم وذويهم، برعوا في العلم والدعوة، وضربت إلى مجالسهم العلمية أكباد الإبل طلباً لعلومهم ومعارفهم.[102]

الهوامش

1 - بوشتى بوعسرية، من مصادر تاريخ العلاقات وشبه الجزيرة العربية، رحلات المغاربة إلى الحرمين الشريفين (ق.12-14 هـ/18-20م)، إعداد محمد ياسر الهلالي، ط1، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطبعة الأمنية، الرباط، 2013، ص: 9

2 عبد الله المرابط الترغي، محاضرات عن حركة كتابة الرحلة واتجاهاتها في المغرب على عهد العلويين، العصر الأول، د.ط، المغرب،2003، ص:13.

3 محمد الفاسي، « الرحالة المغاربة وآثارهم،» مجلة دعوة الحق، ع 4، السنة الثانية، وزارة عموم الأوقاف، الرباط، 1959، ص: 22.

4 مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة، ط1، 2015، الانتشار العربي، بيروت، ص:350.

5 نفس المرجع، ص:350.

6 عبد السلام بن المختار شقور،المناظرات والإنشادات في رحلات المغاربة الحجازية، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة، عاصمة الثقافة الإسلامية، تطوان، 1426هـ ص: 93.

7 نفس المرجع، ص: 93.

8 المرابط، ص:6.

9 محمد الفاسي، «الرحالة المغاربة وآثارهم»، مجلة دعوة الحق، العدد2، السنة الثانية، وزارة عموم الأوقاف، الرباط، 1958، ص:11.

10 نفس المرجع، ص:8.

11 نفس المرجع، ص:9.

12 المرابط، ص: 18.

13 نفس المرجع، ص: 18.

14 الفاسي، مجلة دعوة الحق، ع 2، ص:9.

15 الإسحاقي محمد بن عبد القادر المدعو الجيلالي الشرقي الإسحاقي، له رحلة قام بها عام (1134هـ/1730م)، تقع في مجلدين، يوجد الأول بخزانة القرويين تحت رقم (خق ج ل 80-383) حبسها المولى عبد الله والمجلد الثاني بالمكتبة الزيدانية بالقصر الملكي، ينتسب الإسحاقي إلى قبيلة آيت إسحاق التي استقرت بمنطقة ملوية، توفي الاسحاقي سنة (1150هـ/1737م). أنظر:

– عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، ج4، د.ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1981، ص: 37.

16 كبيرة سيدات القصر الإسماعيلي وزوجة مولى إسماعيل المثقفة، تزوجها أثناء قيامه برحلة تمهيدية عبر صحراء المغرب، عام (1089هـ/ 1678م)، لعبت دورا كبيرا على المستوى السياسي والاجتماعي في عهد زوجها وخلال أزمة العبيد، بحيث مهدت الملك لابنها عبد الله. أنظر:

– محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، 1164/1167هـ، تحقيق هاشم العلوي الفاسي، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص: 355، (الهامش).

17 هو الطاهر بن عبد السلام السلاوي الناصري، المتوفى سنة (1180هـ/ 1766م)، كان سفيرا للسلطان المغربي محمد بن عبد الله إلى اسطنبول لدى السلطان مصطفى الثالث هذه السفارة التي اقترنت بحج بيت الله الحرام سنة (1179هـ/ 1765م)، يعد ابن عبد السلام واحدا من علماء السلف الذين اشتهروا بمحاربتهم للبدع والخرافات، إذ تعرض في رحلته هذه إلى البدع والخرافات المنتشرة عند العوام فيما يتعلق بزيارة القبور

والأولياء والصالحين ويبطلها وقد أورد في ذلك ما نصه: «أن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة المذكورة كزيارة الأولياء ونحوها اختلف العلماء فيها بالجواز وغيرهن ومحل الخلاف ما لم تنبن عليه مفسدة دينية وإلا حرمت بلا نزاع». أنظر:

- محمد الفاسي، «الرحالة المغاربة وآثارهم،» مجلة دعوة الحق، ع 4، السنة الثانية، وزارة عموم الأوقاف، الرباط، 1959، ص ص:23-24.

18 شقور، ص: 97.

19 عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، د.ط، مراجعة عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة عاصمة الثقافة الإسلامية،2005، ص ص: 7-8.

20 مرابط، ص ص: 67-68.

21 عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمسلسلات، ج2، ط2، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1982، ص: 551.

22 شقور، ص: 132.

23 الكتاني، ص ص: 551-553.

24عبد السلام بن عبد القادر بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دليل ابن سودة، ط1، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، 1997م.، ص: 249 .

25 الكتاني، ص ص: 551-553.

26 مرابط، ص: 26.

27 الكتاني، ص ص: 551-553.

28 مرابط، ص ص: 23-25.

29 نفس المرجع، ص ص: 23-25.

30 نفس المرجع، ص ص: 23-25.

31 يشير إلى قوله تعالى: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.» التوبة، الآية 123.

32 أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، رحلة العياشي (-1661 1663م)، مج1، ط1، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة،2006، ص:49.

33 نفس المصدر، ص ص:51-53.

34 مرابط، ص ص: 23-25.

35 ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص:192.

36 أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، شهاب الدين بن حجر،من كبار العلماء في الحديث والتاريخ، لقب أمير المؤمنين في الحديث، أصله من عسقلان بفلسطين ولد سنة(773هـ/ 1372م) بالقاهرة، ولع بالأدب والشعر ثم أقبل في الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع العلماء والأخذ عنهم، حتى برز نجمه وعلت شهرته فقصده الناس للأخذ عنه حتى لقب كذلك بحافظ الإسلام. قال عنه السخاوي:» انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها والملوك وكتبها الأكابر. له عدة مصنفات منها: (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، في أربعة مجلدات، ولسان الميزان، في ستة أجزاء، والإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام) توفي سنة (852هـ/ 1449م). أنظر:

- الزركلي، ج1، ص:178.

37 أبي سالم بن عبد الله بن محمد العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، فهرسة أبي سالم العياشي، مخطوط رقم: 1/334، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المغرب، ص ص: 21-25.

38 نفس المصدر، ص ص: 21-25.

39 يحي بن شرف الدين بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي علامة فقيه ومحدث، ولد سنة (631هـ/ 1233م) في نوا بقرى حوران بسورية، وإليها نسبته، تعلم بدمشق وأقام بها طويلا، من كتبه تهذيب الأسماء واللغات- منهاج الطالبين- تصحيح التنبيه- المنهاج في شرح صحيح مسلم، في خمس مجلدات- حلية الأبرار المعروف بأذكار النووي... توفي سنة(676هـ/1277م). أنظر:

- الزركلي، ج8، ص: 149.

40 العياشي، اقتفاء الأثر، ص ص: 21-25.

41 نفس المصدر، ، ص ص: 21-25.

42 زين العابدين بن عبد القادر الطبري الحسني المكي الشافعي، إمام المقام الإبراهيمي، مات بسكتة قلبية سنة(1078هـ/ 1667م)

43 نسبة إلى شهاب الدين يحي بن حبش السهروردي، الفيلسوف العلامة من حلب توفي سنة (586هـ/ 1190م)

44 نسبة إلى نجم الدين الكبري، أحمد بن يحي الخيوقي البغدادي، توفي سنة (618هـ/1221م)

45 العياشي، رحلة العياشي، ص: 334.

46 نفس المصدر، ص: 427.

47 شقور، ص: 109.

48 يقصد بالمسامرات محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والاخيار لابن العربي، أنظر:

- العياشي، رحلة العياشي، ص: 434.

49 وأصلها بالفارسية سباهان وهي من أشهر البلدان التي تكثر فيها الجبال من بلاد فارس، وهي مأخوذة من كلمتي سباه يعني العسكر، وهان يعني صيغة الجمع، فلقبت ببلاد العساكر،لاجتماع العساكر بها. أنظر:

- محمود مصطفى، إعجام الأعلام، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص:206.

50 شقور، ص ص: 106-107.

51 نفس المرجع، ص: 109.

52 الأجر على الشيء.

53 التوبة،الآية:30

54 العياشي، رحلة العياشي، ص: 432.

55 من أقدم مدن المغرب، تقع بين فاس ووجدة وفي موقع جبلي ممتاز بين الأطلس المتوسط وجبال الريف وممر استراتيجي مهم بين المغرب الشرقي وسهول فاس، اتخذها إدريس الثاني مقرا حربيا له ثم اعتن بها عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه فجعلوها حصنا منيعا، وفي أيام المرينيين أصبحت قاعدة حربية لغزو تلمسان، وفي عهد العلويين اتخذها المولى الرشيد عاصمة لدولته قبل الاستيلاء على فاس. أنظر:

- ابن العربي الصديق، كتاب المغرب، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1984، ص: 94.

56 مرابط، ص: 53.

57 الفاسي، مجلة دعوة الحق، ع 4، ص:23.

58 التازي، رحلة الرحلات إلى مكة، ص:331.

59 مرابط، ص: 53.

60 محمد الفاسي، «أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي،» مجلة المناهل، العدد6، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، السنة الثالثة، 1976 ص: 82.

61 الزبيدي (1732م1790-م) عالم لغوي، محدث، أصله من اليمن. عاش وتوفي في القاهرة، له عدة مؤلفات منها شرحه المطول لإحياء علوم الدين، الذي شاع استعماله في الهند والسودان، وكتاب ”تاج

العروس" وهو شرح لجواهر القاموس للفيروز آبادي. أنظر:

- بطرس حرفوش وآخرون، المنجد في الأعلام، ط1، دار المشرق، بيروت، 1989، ص: 320.

62 الفاسي، مجلة المناهل، ع6، ص ص: 84-85.

63 هو جلال الدين عبد الرحمن بن كمال، نشأ يتيما، وكان ذكيا، قوي الحافظة، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن الثامنة من عمره، ثم تفقه في علوم عصره، وبلغ عدد شيوخه 150، وشرع في التأليف وهو ابن السابع عشر من العمر، رحل في طلب العلم إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب، بلغت مؤلفاته أكثر من ثلاثمائة كتاب، منها في التاريخ:» حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»، وفي الأنساب:» لب اللباب في تحرير الأنساب،» وفي علوم القرآن:» الإتقان في علوم القرآن،» وفي اللغة:» المزهر،» وفي النحو:» الأشباه والنظائر،» توفي سنة (911هـ/ 1505م). أنظر:

- مصطفى، إعجام الإعلام، ص ص:132-133. وكذلك: - الفاسي، المناهل، ع6، ص: 86.

64 الفاسي، المناهل، ع6، ص ص: 89-90.

65 أبي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي، الرحلة الحجازية، مخطوط رقم:746، جامعة لايبزيك بفيينا، ص ص: 3-5.

66 نفس المصدر، ص ص:6-13.

67 نفس المصدر، ص:23.

68 نفس المصدر، ص:95.

69 نفس المصدر، ص ص:72-73.

70 التازي، رحلة الرحلات، ص: 332.

71 الشرقي، ص: 80.

72 العياشي، رحلة العياشي، ص: 317.

73 نفس المصدر، ص: 318.

74 الشرقي، ص:85.

75 التازي، رحلة الرحلات، ص:356.

76 الشرقي، ص:91.

77 نفس المصدر، ص:91.

78 عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي... ناصر الدين البيضاوي: قاض ومفسر وعلامة، ولد بمدينة البيضاء (بفارس قرب شيراز) ولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء فرحل إلى تبريز أين توفي سنة (685هـ/1286م) من تصانيفه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل ويعرف بتفسير البيضاوي)، (وطوالع الأنوار) كتاب في التوحيد، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول، ولب اللباب في علم الإعراب...انظر:

- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج4 ط15، دار العلم للملايين، 2002، ص: 110.

79 التازي، رحلة الرحلات، ص:355.

80 نفس المرجع، ص: 356.

81 الشرقي، ، ص ص:92-93.

82 نفس المصدر، ص:93.

83 الكتاني، ج2، ص ص: 742-744.

84 التازي، رحلة الرحلات، ص:362.

85 الكتاني، ج2، ص ص: 742-744.

86 التازي، رحلة الرحلات، ص:362.

87 مرابط، ص ص: -53 55.

88 ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص: 239.

89 مرابط، ص ص: -53 55.

90 ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص:

239.

91 مرابط، ص ص: -53 55.

92 نفس المرجع، ص ص: -53 55.

93 من المدن المغربية القديمة جدا، احتلها المرابطون وحاصرها الموحدون وكانت شبه مستقلة عن المرينيين، اتخذها محمد الشيخ السعدي، عاصمة له، وسماها المحمدية، تقع على مقربة من وادي سوس. أنظر:

- ابن العربي، ص: 93.

94 أحمد بن عبد العزيز بن رشيد الهلالي، فهرسة الهلالي الكبرى، مخطوط رقم: 1/331، مكتبة مؤسسة عبد العزيز، الدار البيضاء، ص:30.

95 نفس الصدر، ص:30.

96 نفس المصدر، ص:30.

97 نفس المصدر، ص:9.

98 نفس المصدر، ص:29.

99 عبد العزيز صالح الغامدي، دور الحج في التواصل الثقافي بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة، د.ط، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، د. ت. ص:13.

100 محمد السعديين، «مدينة سلا في القرن الثاني عشر(18م)،» متنوعات محمد حاجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص220.

101 أبي العلاء إدريس، الابتسام في دولة بني هشام وديوان العبير في أعيان القرن الثالث عشر، مخطوط ، مكتبة الملك عبد العزيز الدار البيضاء، ص ص: 54-69.

102 الغامدي، ص: 14.